

تحليل الخطاب الروائي في ضوء اللسانيات النفسية

رواية "النول" لمحمد ديب أنموذجا.

Narrative Discourse Analysis in Light of Psycholinguistics: of Mohammed Dib's Novel "The noul" as an example

د. رمضان يوسف*

جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر

تاريخ الارسال 2025-06-21 تاريخ القبول 2025-08-12 تاريخ النشر 2025-09-16

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى مقارنة الخطاب الروائي من منظور اللسانيات النفسية، من خلال تحليل مقطع مختار من رواية "النول" لمحمد ديب. تنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن الخطاب الأدبي يتجلى كبنية لغوية مشحونة بتوترات نفسية ورموز شعورية عميقة. وتسعى إلى توظيف أدوات اللسانيات النفسية لفهم البنية اللاواعية للخطاب، لا سيما عبر تحليل المعجم، والتنعيم، والضمائر، والوظيفة الانفعالية للكلام. وتكمن أهمية البحث في الربط بين البنية اللغوية والدينامية النفسية للشخصيات، مما يعمق فهم البعد التفاعلي في النص الأدبي. وتبرز شخصية "عيني" بوصفها تمثيلاً لغوياً لانفعالات الرفض والخذلان والتمزق الداخلي. ويكشف التحليل أن الخطاب السردي يتحول إلى تعبير وجودي عن الذات المعذبة، ما يؤكد أهمية المزج بين الأدب واللسانيات النفسية في إثراء القراءة النقدية.

الكلمات المتاحية: -اللسانيات النفسية - تحليل الخطاب الأدبي - الوظيفة النفسية للغة - البنية اللغوية والانفعالية.

Abstract:

This article explores the intersection between psycholinguistics and literary discourse analysis through a selected passage from Mohammed Dib's novel The Loom. It assumes that literary discourse reflects psychological tensions shaped in linguistic structures. The study uses psycholinguistic tools to analyze lexical choices, intonation, pronoun usage, and emotional functions of language. Its added value lies in linking linguistic analysis to the psychological depth of fictional characters. The character "Aïni" embodies intense emotional conflict, revealing patterns of rejection, loss, and existential fragmentation. The dense language and somber tone of the novel offer fertile ground for such analysis. Findings show that narrative discourse here exceeds storytelling to become a cry for recognition. Thus, psycholinguistic analysis illuminates hidden aspects of character construction and demonstrates the potential of interdisciplinary literary criticism.

Keywords: Psycholinguistics -Literary Discourse Analysis -Psychological Function of Language -Linguistic and Emotional Structure.

مقدمة:

شهدت الدراسات اللسانية في العقود الأخيرة انفتاحا واسعا على مجالات معرفية متعددة، من بينها علم النفس، مما أدى إلى ظهور تخصص "اللسانيات النفسية"، الذي يُعنى بدراسة العلاقة بين اللغة والنفس، ويهتم بفهم العمليات الذهنية المرتبطة بإنتاج اللغة وفهمها، سواء على مستوى الكلمات أو التراكيب أو المعاني. وقد أظهر هذا المجال أهمية خاصة في فهم كيف تعبر اللغة عن الانفعالات، وتكشف عن الاضطرابات أو التوترات النفسية الكامنة خلف الخطاب.

من جهة أخرى، يعد النص الأدبي - وخاصة النص السردي - من أبرز الفضاءات التي تنعكس فيها التجربة النفسية للإنسان، عبر اللغة والتصوير والتخيل. فالكاتب يحمل شخصياته ما يعيشه أو يلاحظه من آلام وأسئلة وجودية، وتصبح اللغة وسيلته في نقل هذا العالم الداخلي إلى القارئ. وهنا تبرز إمكانية اللقاء بين الأدب واللسانيات النفسية، في مشروع نقدي يهدف إلى تحليل الخطاب الأدبي ليس فقط من حيث مضمونه أو جمالياته، بل أيضا من حيث قدرته على تمثيل التوترات والانفعالات النفسية.

ينطلق هذا المقال من هذه الرؤية، محاولا تطبيق أدوات اللسانيات النفسية على مقطع من رواية "النول"، وهي رواية تنتمي إلى الأدب العربي الحديث، وتتميز بلغتها الكثيفة وتصويرها القاتم للواقع النفسي والاجتماعي. وقد وقع الاختيار على خطاب شخصية "عيني"، لأنها تمثل حالة انفعالية عالية، وتعبر عن خلال لغتها الغاضبة والحزينة عن معاناة داخلية عميقة. نسعى من خلال هذا التحليل إلى فهم كيف تنعكس حالتها النفسية في كلامها، وكيف تؤثر هذه الحالة على البنية اللغوية للخطاب، من حيث المعجم، والتراكيب، واختيار الضمائر، وطريقة التعبير عن الذات والآخر.

إن أهمية هذا الموضوع تكمن في كونه يجمع بين الحقول المعرفية، ويوظف مفاهيم اللسانيات النفسية في خدمة تحليل الخطاب الأدبي، بما يثري القراءة ويمنحها بعدا إضافيا يتجاوز الفهم السطحي للنصوص. كما أن هذه الدراسة تسعى لإبراز مدى قدرة اللغة على حمل التجربة الشعورية، والتعبير عن الألم النفسي من خلال أدواتها الخاصة.

1- مدخل لتحديد المفاهيم

1-1 تعريف اللسانيات النفسية:

تعد اللسانيات النفسية (psycholinguistique) فرعا من اللسانيات التطبيقية، يعرفها جلال شمس الدين بقوله: "هي علم يدرس ظواهر اللغة ونظرياتها وطرق اكتسابها وإنتاجها من الناحية النفسية، مستخدما

أحد مناهج علم النفس¹، فهي تركيز على العلاقة بين اللغة والعقل البشري، وذلك من خلال مقارنة الكيفيات التي تُكتسب بها اللغة، وتُنتج، وتُفهم، وتخزن في الذاكرة، ثم تُسترجع وتُوظف في مواقف تواصلية مختلفة. وقد ظهرت هذه المقاربة في ملتقى بين علم النفس المعرفي وعلم اللغة، مما جعلها علما بينيا بامتياز، يتداخل فيه المعرفي بالعصبي، واللغوي بالوجداني .

تبني اللسانيات النفسية على فرضية أساسية تفيد بأن اللغة ليست نظاما معزولا، بل هي نشاط ذهني مركب، تشارك في إنجازه عمليات معرفية معقدة كالإدراك، والانتباه، والتفكير، والذاكرة، والتخيل، بل وحتى الانفعال. يعني هذا التخصص بدراسة اللغة من لحظة استقبالها في الدماغ، إلى لحظة إنتاجها في الخطاب، وهو ما يجعل من اللسانيات النفسية أداة علمية لفهم البعد الذهني للغة، سواء في حالاتها السوية أو المرضية، وفي سياقاتها الشفوية أو الكتابية. كما تهتم هذه المقاربة كذلك، بدراسة الدوافع اللاشعورية التي قد تتدخل في إنتاج اللغة، مثل زلات اللسان، أو التكرار اللاوعي، أو اختيار تراكيب معينة دون غيرها، وهي كلها مظاهر لغوية يمكن أن تحمل في طياتها دلالات نفسية عميقة .

وقد تطورت اللسانيات النفسية على مدى العقود الماضية، خاصة مع بروز النموذج المعرفي والرقمي للذهن، مما أتاح ربط العمليات اللغوية بالبنى الدماغية والوظائف العصبية. ولأن اللغة تظل واحدة من أبرز أنشطة العقل، فإن فهمها من منظور نفسي يشكل مدخلا جوهريا لفهم الإنسان في تعبيره وتمثلاته للعالم.

1-2 ماهية الخطاب الأدبي:

الخطاب عند رومان جاكسون، "عبارة عن رسالة message ييئها المبدع إلى المتلقي، عن طريق قناة الإتصال contacte وتخضع إلى شيفرة code مشتركة بين المبدع والمتلقي، لأن المبدع هو الذي يركب الرسالة والمتلقي هو الذي يفككها، أي يمارس عليها القراءة"².

أما الخطاب الأدبي هو نمط من أنماط التعبير اللغوي يتميز بكثافة الأسلوب، وتراكب الدلالة، واستعمال اللغة في غير معناها المباشر، ويعرفه عبد السلام المسدي بقوله: "ممارسة أدبية للغة عن وعي وإدراك، إذ ليست فيه اللغة مجرد قناة عبور دلالات، إنما تتقيد بقواعد وشروط فنية تختلف باختلاف النوع الأدبي"³ ولا يقصد بالخطاب الأدبي النصوص الإبداعية فقط كالقصيدة والرواية... بل الطريقة أو اللغة التي يصاغ بها المعنى ضمن شبكة من العلامات الأسلوبية والرمزية.

¹ جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته وقضاياها، مؤسسة الجامعة، الإسكندرية، الجزء الأول، 2003، ص10

² زهيرة بنيني، جمالية الخطاب الأدبي على ضوء الدراسات النقدية الحديثة، مجلة علوم اللغة العربية و آدابها، 2009، ص162.

³ عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ص112.

ويعتمد تحليل هذا الخطاب على تفكيك بنيته اللغوية، ورصد أنماطه البلاغية، وتتبع الإيقاع الداخلي للجمل، بغرض الكشف عن المعاني الضمنية أو اللاواعية التي تتوارى خلف ظاهر القول. فالنص الأدبي لا ييوح بمعناه صراحة، بل يقتضي تأويلاً دقيقاً يراعي اللغة، والأسلوب، والسياق. ومن هنا تكتسب المقاربة النفسية أهميتها، باعتبارها تمكن الباحث من ربط التوترات الأسلوبية والمفارقات البلاغية بالبنية النفسية للكاتب أو الشخصيات، بما يجعل اللغة أداة لفهم العواطف العميقة والمواقف الذهنية التي ينطوي عليها النص.

1-3 الصلة بين اللسانيات النفسية وتحليل الخطاب الأدبي:

تنبثق العلاقة بين اللسانيات النفسية وتحليل الخطاب الأدبي من كون النص الأدبي ليس فقط بنية لغوية تحمل مضمونا جماليا، بل هو في جوهره تعبير عن حالة نفسية معينة، تتجلى من خلال اللغة المستعملة، " فالعلاقة الوطيدة بين الأدب و اللسانيات النفسية تستدعي أن يكون العمل الأدبي حاملا في داخله لمواقف نفسية"⁴، فالأديب حين يكتب، لا يصوغ نصا محايدا، بل يفرغ في عباراته شحنات شعورية، ودلالات لاواعية تعبر عن توتراته، أو تطلعاته، أو أزماته، أو حتى مكبوتاته.

من هنا تساعد اللسانيات النفسية في كشف كيف تتسرب الحالات الذهنية إلى الخطاب من خلال اختيار الألفاظ، ونمط الجمل، وتوزيع الضمائر، والاستعارات المستخدمة، مما يجعل اللغة وسيطا بين العالم الباطني والتمظهر الخارجي للنص.

وعلى مستوى الشخصيات المتخيلة، تقدم اللغة نافذة لفهم بنيته النفسية، إذ إن اضطراب التعبير أو تمزق الجمل، أو حتى هيمنة زمن لغوي معين، يمكن أن يدل على القلق، أو الشعور بالذنب، أو الحنين، أو الانكسار. فاللغة هنا ليست مجرد أداة سردية، بل هي مؤشر دقيق على ما تعانیه الشخصية من صراعات داخلية. كما أن تكرار مفردات معينة أو الالتجاء إلى التضمينات والكنائيات قد يكون انعكاسا لرقابة نفسية لاواعية تمارسها الذات، سواء أكانت شخصية في الرواية أم الكاتب نفسه. بهذا يتحول التحليل اللساني النفسي إلى ممارسة قرائية تسعى لتفكيك البنية النفسية للنص، والاقتراب من عوالمه الداخلية بوساطة اللغة لا من خارجها.

⁴عبد القادر قصاب، رضوان جنيدى، التحليل النفسي في الدرس النقدي العربي، مجلة آفاق علمية، المجلد 11، العدد 01،

2019، ص 393، (بتصرف)

2- الإطار النظري.

2-1 نظرية المعالجة اللغوية:

هي أحد أهم نظريات علم اللغة النفسي "تهتم بدراسة اللغة في النفس البشرية، وتحدد مناطقها ووظائفها داخل دماغ الإنسان وترصد نموها واكتسابها، وتعلمها، وما يؤثر في ذلك كله من عوامل ومشكلات داخلية وخارجية"⁵ أي أنها تركز على كيفية تعامل الدماغ البشري مع اللغة، وكيف ينتج لغة منطوقة أو مكتوبة . شغلت العلاقة بين الدماغ واللغة اهتمام الباحثين في مجالات عدة كعلم الأعصاب، علم اللغة، وعلم النفس المعرفي، وذلك بغرض الكشف عن كيفية ترجمة الأفكار إلى كلمات مفهومة.

أشارت الأبحاث في ظل نظرية المعالجة اللغوية، أن الدماغ لا يتعامل مع اللغة كوحدة واحدة، بل يقوم بتوزيع مهام معالجتها على مجموعة من المناطق المتخصصة مثل "منطقة بروكا" وهي منطقة موجودة في الفص الأمامي من المخ والمسؤولة عن إنتاج الكلام، ومنطقة "فيرنيك" الموجودة في القشرة الدماغية والمسؤولة عن فهم الكلام"⁶؛ يظهر هذا التوزيع الدقيق تعقيد النظام اللغوي داخل الدماغ، ويبرز التفاعل المتكامل بين البنية العصبية والوظيفة اللغوية.

في ظل هذا التفاعل ينتج الدماغ عمليتين أساسيتين هما عملية إدراك الكلام وعملية إنتاج الكلام وطبعا ينتج هذا عن طريق امتلاك السامع لمجموعة من الاستعدادات والقواعد النحوية التي تمكن من إنتاج عدد لا نهائي من الجمل، وهو ما يشمل جوهر نظرية تشومسكي التوليدية"⁷، إذن إدراك الكلام هو العملية الأولى التي يتمكن فيها الدماغ من فهم الأصوات المنطوقة وفك شفراتها وتحليلها لغويا، وتشمل هذه العملية:

- التحليل السمعي: في البداية يتم التقاط الشارات الصوتية وتحليلها في الأذن الداخلية.
- التعرف على الوحدات الصوتية: يتم تمييز الأحرف (الألف، الباء، التاء...) ضمن السياق السمعي.
- الوصول إلى المعجم العقلي: تتم مقارنة الأصوات المسموعة بالكلمات المخزنة في المعجم الذهني حتى تفهم الكلمة ومعناها.

- تحليل السياق اللغوي والمعرفي: يتم استخدام السياق لفهم الكلمات والجمل والمعاني المعقدة.

العملية الثانية وهي إنتاج الكلام يتم فيها تحويل الأفكار إلى تعبيرات لغوية منطوقة وتشمل ثلاثة مراحل:

⁵ عبد العزيز ابراهيم العصيلي، علم اللغة النفسي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، 2006،

⁶ سليم مزهود، معالجة اللغة الطبيعية في ضوء البرمجة اللغوية العصبية والتحديات والحلول حلول اللغة العربية أنموذجا، مجلة نوميروس الأكاديمية، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة (الجزائر)، المجلد الرابع، العدد الأول، 2023، ص 35.

⁷ فاطمة الطبال، النظرية الألسنة عند رومان جاكسون، دراسة ونصوص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1993، ص 92.

- مرحلة التخطيط اللغوي: يبدأ الدماغ بتحديد الفكرة ثم اختيار الكلمات، والجمل، والأسلوب القادر على حمل هذه الفكرة من أجل إرسالها للمتلقي.
- مرحلة البرمجة الصوتية: في هذه المرحلة يقوم الفرد في دماغه بتحديد الأصوات المطلوبة، ثم ترتيبها.
- مرحلة التنفيذ: يقوم الدماغ بإعطاء الإشارة لكل من عضلات النطق (الحنجرة، اللسان، الشفاه) لإنتاج الأصوات ونطق الكلمات في سياق لغوي مناسب.

2-2 نظرية السياق النفسي للنصوص:

هي نظرية نقدية تحليلية نشأت وتطورت ضمن حقول المدارس النفسية في النقد الأدبي، تسعى إلى فهم النصوص الأدبية واللغوية من خلال تحليل السياق النفسي للكاتب، أي أن هذه النظرية تركز على العلاقة بين النص والنفس البشرية التي تتقف وراءه .

تفترض هذه النظرية أن تحليل النصوص لا يمكن أن يكون مكتملاً دون فهم الحالة النفسية للمنتج، أو البيئة النفسية والاجتماعية التي نشأ فيها النص.

يرى بعض المنظرين لهذه النظرية أن الكاتب غالباً ما يُسقط حالته النفسية وصراعاته الداخلية على نصوصه، وأن العمل بهذه النظرية " يتطلب الفهم الكامل للنصوص، والاعتماد على مجموعة من المعارف والمفاهيم بما في ذلك العلاقات الدلالية والنحوية والسياق الاجتماعي والنفسي"⁸، فكل كلمة مختارة في النص تحمل شحنة عاطفية، وكل بناء نحوي يعكس لنا إيقاعاً داخلياً يتأثر بما يشعر به المتكلم؛ فتتحول الكلمات والتراكيب إلى أدوات تعبيرية عن النفس البشرية ضمن سياق نفسي محاييد .

اللسانيات النفسية كانت سباقة لاحتضان نظرية السياق النفسي للنصوص، وطرحت في ذلك مجموعة من الأسئلة منها: كيف تؤثر المشاعر والحالات الذهنية في اختيار الكلمات؟ وكيف تُدرس هذه الكلمات ضمن سياق لغوي نفسي محايد؟

تدرس اللسانيات النفسية عامة، والسياق النفسي خاصة الأدب على أنه " أحد أشكال التعبير الإنساني، يعبر عن مجمل عواطف الإنسان وأفكاره وخواطره وهواجسه بأرقى الأساليب الكتابية... ففيه يكشف المكنون وتوضح الأسرار وتخرج الأحاسيس من عالم الخفاء إلى عالم النور"⁹. تعد المشاعر وقوداً ضرورياً في تجربة الكتابة الأدبية، فهي توقف في الأديب الرغبة في التعبير. فعندما يمر الأديب بحالة شعورية قوية كالحزن أو الحب أو القلق أو الفرح، تنشأ داخله حالة ذهنية تدفعه إلى الكتابة كنوع من التنفيس أو التأمل أو المشاركة الوجدانية، هذه المشاعر تحدد

⁸ يوسف رمضان، فهم اللغة وصياغاتها: مسارات إدراك الكلام وإنتاجه من منظور علم النفس اللغوي، مجلة اللغة الوظيفية، المجلد

11، العدد 1، 2024، ص 137.

⁹ فريد زعلامي، المحاضرة الثانية: علاقة الأدب بالأحاسيس النفسية، ص 01.

طبيعة الموضوع الذي يختاره، وتوجهه نحو ألفاظ تعبر بدقة عن إحساسه، لذا فإن الانفعال العاطفي يشكل الشارة الأولى التي تضيء طريق الكتابة وتؤطر المزاج العام للنص.

كما تؤثر المشاعر تأثيرا مباشرا في الأسلوب الذي يتبناه الأديب لاسيما في اختياره للصور البلاغية والتراكيب اللغوية، فالحالة الشعورية التي يمر بها الأديب توجهه نحو انتقاء تعبيرات تتلاءم مع طبيعة إحساسه "فهنا من محاسن التحليل النفسي، التعمق في تحليل الصور وربطها بشعور الأديب"¹⁰ فمثلا عندما يسيطر عليه الحزن يميل إلى استخدام صور مظلمة وكلمات ذات وقع ثقيل وقد يستحضر مفردات كالظلام، الوحدة، الغياب... أما في حالات الفرح والانشرح، فتظهر في كتابته صور مشرقة وتراكيب خفيفة مليئة بالحركة والحياة، وهكذا تصبح البلاغة والتراكيب أدوات تعبيرية تتلون بلون العاطفة وتمنح النص عمقا جماليا.

أما الكلمات التي يختارها الأديب لا تنقل أفكاره فقط، بل تعكس حالته الشعورية والذهنية في لحظة الكتابة، فاللغة تصبح مرآة تعكس ما يمر في داخله من انفعالات، سواء كانت هدوءا وتأملات، أم توترا وغضبا، أم شوقا وحنينا، فحين يكتب الأديب وهو غارق في الحنين مثلا تنساب الكلمات بحساسة ورقة، بينما قد تأتي جافة وحادة إن كانت نابعة عن خيبة أو غضب، وبذلك تتحول المفردات والكلمات ضمن السياق النفسي إلى مؤشرات دقيقة على حالته الداخلية، وتمنح القارئ نافذة يطل منها على وجدان الكاتب ويشعر بما يشعر به.

2-3 مدرسة التحليل النفسي اللغوي :

تعد مدرسة التحليل النفسي اللغوي من أبرز المدارس الفكرية الحديثة في الدراسات النفسية واللغوية؛ التي سعت إلى فهم النفس الإنسانية في مستوياتها العميقة. تقوم هذه المدرسة على " مجموعة من النظريات التي تؤكد على تأثير العقل اللاوعي على سلوك البشر وتعبيره"¹¹.

تأسست هذه المدرسة مع أعمال سيغموند فرويد (sigmund Freud)، الذي أحدث قطيعة مع التصورات الكلاسيكية للوعي، حينما أبرزت أن الإنسان ليس سيداً مطلقاً لخطابه، بل تحكمه دوافع خفية وصراعات لاشعورية، تتجلى في اللغة والحلم وزلات اللسان والأعراض النفسية. وقد شهدت المدرسة تطورات نوعية مع مفكرين لاحقين أمثال كارل يونغ (Carl Jung) وجاك لاكان (Jacques lacan) الذين أعادوا صياغة مفاهيم فرويد في ضوء البنيات الثقافية والرمزية.

¹⁰ دربالي وهيبه، التحليل النفسي بين المفارقة الغربية والمقاربة البلاغية العربية، مجلة إشكالات، المجلد 07، العدد 02، 2018، ص30.

¹¹ kendra cheery (06/10/2020) "the influence of psychoanalysis on the psychology", verywell mind retrieved 16/1/202 edited.

في سياق التحليل الأدبي وفرت هذه المدرسة أدوات تحليلية دقيقة لتأويل النصوص من خلال قراءة الرمز، والتمثيل اللاشعوري، وآليات الدفاع النفسي، وهو ما أسهم في بلورة مقاربات نقدية تقارب الأدب باعتباره مجرد تمثيل جمالي، بل باعتباره خطابا مشحونا بالدلالات النفسية التي تعبر عن تمزقات الذات ورغباتها المقموعة.

● نظرية سيغموند فرويد :

لقد مثلت نظرية فرويد في التحليل النفسي منطلقا جوهريا لفهم الخطاب الإنساني، لا بوصفه نتاجا واعيا فقط بل باعتباره أيضا إنعكاسا لمكبوتات الذات ولاوعيتها " فالخطاب هو الذي يشكل أو يصوغ اللاشعور"¹²، انطلاقا من هذا التصور أضحت الخطاب الأدبي- في المنظور الفرويدي- حقلا غنيا لرصد التوترات النفسية والرغبات المؤجلة والتمثلات الرمزية التي تتوارى خلف الشكل اللغوي الظاهر .

فاللغة في النصوص الإبداعية لا تُفهم بمعزل عن القوى النفسية الكامنة، بل تحلل بوصفها مظهرا من مظاهر الصراع بين الرغبة والقمع، وبين الهو والأنا والأنا الأعلى، فتُعامل اللغة " كظاهرة اجتماعية بسلوكية، قبل أن تكون كلمات وأصواتا وصرفا ونحو..."¹³ حيث يترجم المكبوت على شكل صور بلاغية وانزياحات أسلوبية وزلات قلم وحتى الصمت أو التكرار .

وتعد مفاهيم الرغبة والرمز من الركائز الأساسية في هذا التحليل، إذ يرى فرويد أن اللغة الفنية الجمالية تحمل في عمقها رموزا تحل محل الرغبات المكبوتة؛ التي لا يستطيع الوعي التصريح بها مباشرة، ومن هنا تغدو الاستعارات والتشبيهات والبنى الاستعارية أدوات تعبير عن لاشعور الفرد، في حين تمثل آليات مثل الإسقاط، والتبرير، والتناص النفسي، وسائل دفاعية تساهم في صياغة العالم النصي بشكل يرضي الذات ويخفي صراعاتها في آن واحد. وهكذا يصبح النص الأدبي وفق المنظور الفرويدي مسرحا للذات المنقسمة، تسرد فيه حكاياتها الظاهرة لتقول مالا يقال بلغة مضغوطة بالرموز والأحلام.

● نظرية جاك لاكان:

يعتبر "جاك لاكان" من أبرز المفكرين الذين أحدثوا نقلة نوعية في فهم العلاقة بين اللغة واللاشعور، انطلق في التأسيس لنظريته من نظرية فرويد واتخذ من " اللغة وسيلة أخرى للعبور إلى العالم الداخلي للإنسان"¹⁴، أي فهم البنية النفسية للفرد أو الشخصيات من خلال الخطاب. فاللغة هنا تعد المحور الأساسي الذي يحول الكلمات إلى أفعال لاشعورية تعكس ما يدور في أعماق النفس .

¹² خيرة بورنان، العمق اللغوي للتحليل النفسي من منظور جاك لاكان، مجلة دراسات نفسية وتربوية، المجلد 13/2 (عدد خاص)، 2020، ص 25 .

¹³ أنيس فريجة، نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، 1981، ص 13.

¹⁴ إيمان ملال، جاك لاكان وبنية اللاوعي، مجلة التراث، جامعة الجلفة، العدد 25، 2017، ص 44.

بهذا الطرح أعاد لاكان تأويل المفاهيم الفرويدية مستندا إلى النظريات البنوية والسيمولوجية، ليؤكد أن اللاشعور لا يتكلم بلغة غريزية خام، بل ينظم ذاته وفق بنية لغوية قائمة على المجاز، الكناية... وعلى قوانين التشابه والتجاوز التي تهيكّل الخطاب، وفقا لهذا المنظور فإن الذات لا تملك اللغة بل تتشكل بها، أي أن الذات المكتملة لا تعي نفسها إلا من خلال تموضعها في نسق لغوي يسيقها، ويتحكم في إنتاج خطابها .

في ضوء ذلك تصبح اللغة عنده، فضاء تتجسد فيه الرغبة ويتكسر فيه الافتقار، فالذات لا تكتمل أبدا لأنها دائما تسعى نحو الآخر، ذلك الآخر الذي لا يدرك إلا عبر اللغة. وتشكل المفارقة بين القول وما يراد قوله جوهر تحليل الخطاب عند "لاكان"، إذ تقرأ الإنزلاقات، والتناقضات، والتكرارات، بوصفها علامات على فجوة الذات ووعيها .

وقد أولى أيضا، أهمية بالغة للضمائر وطريقة توزيعها في النص، باعتبارها مؤشرات على تمزق الذات وتعدد مواقعها وانتقالها من موقع المتكلم إلى موقع الموضوع، وهكذا فإن الخطاب الأدبي من منظوره، ليس مجرد حكي بل هو أثر جرح لغوي تشهد فيه اللغة على غياب المعنى الثابت، وعلى تمزق وتفكك الذات أمام سلطة الرموز.

3- الجانب التطبيقي: التحليل النفسي اللساني للنص السردي.

3-1 مقطع مختار من رواية "النول"¹⁵ لمحمد ديب

...استولى خدر الليل على الدار الواسعة، والأمطار التي ضاعفت حماسها أثناء ذلك لا تزال تفضي إلى الفناء وإلى الأروقة بهذيانها المحمول الذي لا ينقطع.

أضافت "عيني" تقول بعد أن ظلت صامتة خلال لحظة من الوقت:

..-ذلك أنك تظن نفسك رجلا.

وعادت تنعته بأنه ليس له قلب، وبأنه أشبه بالعلقة.

لقد استبد بها الغضب، ثم قالت تلومه: لعلك تحسب أنه ليس في قلبي الكفاية من الجروح.

إن صفير الريح وقرقرة المطر، اللذين يختلطان بصيحات "عيني" قد أيقظتا في قلب عمر حزنا شديدا لا سبيل إلى وصفه.

كان يأس عيني ينبع من مصدر آخر..

قالت مدمدة:

على هذه الأرض اللعينة ولدنا كما يولد العار، وأكلنا كما تأكل الحثالات، وتركنا كما يترك المنبذون، حتى خبزنا أسود، كسواد هذا الليل الذي يلفنا بظلامه.

¹⁵ محمد ديب، رواية النول، ترجمة سامي الدروبي، دار الهلال، 1970، ص 32/33.

3-2 تطبيق عملي للمقطع المختار.

أولاً- المعجم العاطفي و الانفعالات النفسية

النص مشبع بألفاظ تعكس توترات نفسية عالية، منها: "خدر الليل"، "صغير الريح"، "قرقة المطر"، "غضب"، "جروح"، "صيححات"، "حزن"، "يأس"، "العار"، "الختالات"، "المنبذون"، في اللسانيات النفسية تشير هذه الشحنة اللغوية، على تشابك حسي-انفعالي، حيث يدمج الإدراك الحسي بالاستجابة العاطفية والحجة الانفعالية، مما يعمق المعاناة الداخلية للشخصيات، ويكشف مزاجا سوداويا عاما، وتجربة قهر واحتقار ذاتي واجتماعي .

المعجم العاطفي في هذا المقطع يساعد القارئ على الدخول إلى عالم "عيني" الداخلي، ليفهم ليس فقط ما تقوله، بل كيف تعيش ما تقول. فكل كلمة تبدو وكأنها خارجة من جرح قديم لم يلتئم بعد، وهذا ما يجعل النص مؤثرا نفسيا، لأننا نشعر بأن الألم حقيقي، وليس مجرد حكاية تُروى.

ثانياً- الجمل والصياغة

في التحليل النفسي اللغوي "الجملة هي أكبر وحدة لغوية قابلة للتحليل"¹⁶، والمعروف أن الكاتب "محمد ديب" يختار جملة بعناية شديدة، مما يساهم في بناء صورة ذهنية قوية لدى القارئ حول شخصيات روايته.

أول ما نلاحظه أن الجمل طويلة نسبيا ومحملة بالصور والانفعالات، تدل على تدفق عاطفي مكبوت بدأ ينفجر.

مثال 1: "لعلك تحسب أنه ليس قلبي الكفاية من الجروح"¹⁷. هنا التركيب يفضح عتبا داخليا، وألما مكبوتا، يظهر عبر تركيب لغوي يوظف الاستفهام التقريري.

مثال 2: "صيححات عيني قد أيقضتا في قلب عمر حزنا شديدا لا سبيل إلى وصفه"¹⁸. الجملة بصيغتها الإخبارية تشبه تصريحاً إنفعالياً مختصراً، وهو شائع في حالات التعبير الموجز عن الألم النفسي (حزنا شديدا).

مثال 3: "كان يأس عيني ينبع من مصدر آخر"¹⁹. الجملة تظهر حالة من اليأس تعيشها الأم عيني ترجع إلى سبب غير معروف أو متوقع لم يظهر في الرواية، في التحليل النفسي اللغوي مثل هذه الجمل تعتبر "تسرب انفعالي" لما عاشه الفرد، أو يعيشه حالياً دون البوح عن السبب .

مثال 4: "على هذه الأرض العينة ولدنا كما يولد العار، وأكلنا كما يأكل الختالات، وتركنا كما يترك المنبذون، حتى خبزنا أسود، كسواد هذا الليل الذي يلفنا بظلامه"²⁰. هذه الجمل المتتالية لها وظيفة مزدوجة إذ تشير إلى

¹⁶ حولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، الجزائر، الطبعة الثانية، 2000، ص 167.

¹⁷ محمد ديب، رواية النول، مرجع سابق، ص 33

¹⁸ المرجع نفسه، ص ن.

¹⁹ المرجع السابق، ص ن.

حالة من البحث عن معنى الحياة في عالم مليء بالاضطرابات والمأساة، وفي نفس الوقت محاولة البحث الذات، مما يعكس الصراع الوجودي الذي تعاني منه عيني.

إنّ تأمل الجمل التي استخدمها الأديب، يُظهر أن اللغة لم تكن وسيلة لسرد الأحداث فقط، بل أصبحت وسيلة للتعبير عن الألم الداخلي والصراعات النفسية التي تعيشها الشخصيات. فتركيب الجمل الطويلة، واختيار الكلمات المشحونة بالعاطفة، يكشفان عن معاناة دفينّة تحاول الشخصيات التعبير عنها بشكل غير مباشر. إن استعمال أدوات مثل السؤال أو الصور البلاغية ليس تزيينا لغويا فحسب، بل هو شكل من أشكال التعبير النفسي، تحاول به الشخصية أن تخفف من ألمها أو على الأقل تعترف بما يؤلمها في داخلها.

ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن الجمل الطويلة والمشحونة في خطاب "عيني" تعكس اضطرابا نفسيا واضحا، وتكشف عن شعور داخلي بالاختناق أو الغضب أو الحزن. كما أن تكرار صور مثل الظلام والسواد والنبذ يدلّ على رؤية متشائمة للحياة، لكنّه أيضا يعبر عن شعور داخلي بعدم الانتماء أو الإحساس بالرفض. وهكذا، يتحول النص السردي عند "محمد ديب" إلى مرآة تعكس مشاعر الشخصيات العميقة، وتكشف لنا عن آلامها من خلال صياغة اللغة التي تنطق بها.

ثالثا: الأصوات والموسيقى الداخلية للنص :

يعد الجانب الصوتي عنصرا مهما في عملية التحليل اللساني النفسي، لأنه يشعر القارئ بصوت النفس المتألّمة داخليا.

إستعان الأديب بكلمات فيها صوتيات قاسية مثل: "صيححات"، "هذيان"، "مدممة" كآلية دفاع لغوي. حسب " شابير (chabert) " هذه الآلية تستعين بها الأنا " للتقليل من حدة الصراع النفسي الداخلي"²¹، هذه الصوتيات تخلق إيقاعا داخليا يتناغم مع اضطراب عيني النفسي، فالألم تسقط مشاعر الخيبة والغضب على ابنها عمر في محاولة منها للتخفيف من أساها الداخلي.

وتبين الكلمات التي تحمل أصواتا قوية في النص المختار، أن الصوت في اللغة يمكن أن يعكس مشاعر الشخصيات الداخلية، خاصة في لحظات التوتر والانفعال. فكلمات مثل "صيححات"، و"هذيان"، و"مدممة"، ليست كلمات عادية، بل تعبّر عن حالة من القلق والغضب والانكسار. ومن خلال التحليل النفسي اللغوي، نلاحظ أن هذه الكلمات تساعد الشخصية في هذه الحالة، على التعبير عن مشاعرها المكبوتة بطريقة غير مباشرة،

²⁰المرجع نفسه، ص ن.

²¹لابلانج جان، بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر

والتوزيع، بيروت، ط2، ص491

وكأن اللغة هنا تصبح وسيلة للدفاع عن النفس، تخفف من الألم الداخلي كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين مثل "شابير"، الذي تحدّث عن آليات يستخدمها الإنسان لحماية نفسه أثناء الأزمات النفسية. إن وقع هذه الكلمات في النص لا يخدم المعنى فقط، بل يضيف أيضا نغمة حزينة ومتوترة تجعل القارئ يشعر بالضيق النفسي الذي تعيشه الأم. فالصوت لا يصور الحدث فقط، بل يصور ما تشعر به الشخصية من الداخل.

رابعا: الضمائر وتوزيع الخطاب

نلاحظ من خلال هذا المقطع المختار، أن الضمائر لم تستعمل عبثا، بل تعبر عن الحالة النفسية لشخصية "عيني" وعن الطريقة التي تنظر بها إلى نفسها وإلى الآخرين. فعندما تستعمل ضمير المخاطب في جملة، "تظن نفسك رجلاً"، فهي لا تتحدث فقط، بل تواجه وتلوم. هذا النوع من الخطاب يكشف أن الشخصية تعيش حالة غضب داخلي، وتريد أن تحمل الآخر جزءا من الألم الذي تشعر به.

ثم عندما تنتقل إلى ضمير المتكلم مثل: "في قلبي الكفاية من الجروح"، فهي تبدأ في التعبير عن ألمها الشخصي. هنا يصبح الكلام اعترافا، وكأنها لم تعد قادرة على إخفاء ما بداخلها.

أما في قولها: "وُلدنا كما يولد العار..."، فإن استعمال ضمير الجمع يعكس أن "عيني" لا تتحدث فقط عن نفسها، بل عن جماعة كاملة تشعر بالإهانة والنبد. هذا يعطي الخطاب بعدا اجتماعيا، ويبين أن المعاناة عندها لم تعد مجرد تجربة شخصية، بل أصبحت شعورا عاما تتقاسمه مع الآخرين.

إذن، الضمائر هنا تعبر عن مشاعر مختلفة: الغضب، الحزن، والبحث عن الانتماء. وكل مرة تغير "عيني" طريقة الكلام، نكتشف جانبا جديدا من حالتها النفسية.

خاتمة:

يتبين من خلال هذه الدراسة أن توظيف اللسانيات النفسية في تحليل الخطاب الأدبي يفتح آفاقا جديدة لفهم أعمق لبنية النصوص، خصوصا تلك التي تتسم بكثافة شعورية وتوتر داخلي، كما هو الحال في رواية "النول" لمحمد ديب.

وقد أتاح الجانب التطبيقي، من خلال تحليل مقطع مختار من الرواية، فرصة ملموسة لتتبع الكيفية التي تنعكس بها التجربة النفسية في التفاصيل اللغوية الدقيقة، مثل اختيار المفردات، وبناء الجمل، وتوزيع الضمائر، والنغمة الانفعالية للخطاب.

كما مكن هذا التحليل من الكشف عن الأبعاد اللاشعورية التي تؤثر في تشكيل الأصوات السردية، وأبرز كيف تتحول اللغة إلى وسيلة للتعبير عن الألم الداخلي والتمزق الوجودي. وعليه، فإن هذا التداخل بين اللسانيات النفسية والتحليل الأدبي لا يثري القراءة النقدية فحسب، بل يؤكد أيضاً على جدوى المقاربة التطبيقية في الإضاءة على الجوانب الخفية للنص، وفي بناء فهم أكثر شمولاً وتعقيداً للتجربة الأدبية بوصفها انعكاساً لحالات إنسانية عميقة.

قائمة المراجع:

kendra cheery (06/10/2020) "the influence of psychoanalysis on the psychology",
verywell mind retrieved 16/1/2022 edited.

- أنيس فريجة، نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، 1981.
- إيمان ملال، جاك لاكان وبنية اللاوعي، مجلة التراث، جامعة الجلفة، العدد 25، 2017.
- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته وقضاياها، مؤسسة الجامعة، الإسكندرية، الجزء الأول، 2003.
- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، الجزائر، الطبعة الثانية، 2000.
- خيرة بورنان، العمق اللغوي للتحليل النفسي من منظور جاك لاكان، مجلة دراسات نفسية وتربوية، المجلد 13/2 (عدد خاص)، 2020.
- دربالي وهيبة، التحليل النفسي بين المفارقة الغربية والمقاربة البلاغية العربية، مجلة إشكالات، المجلد 07، العدد 02، 2018.
- زهيرة بنيني، جمالية الخطاب الأدبي على ضوء الدراسات النقدية الحديثة، مجلة علوم اللغة العربية و آدابها، 2009.
- سليم مزهود، معالجة اللغة الطبيعية في ضوء الترجمة اللغوية العصبية والتحديات والحلول حلول اللغة العربية أنموذجا، مجلة نوميروس الأكاديمية، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة (الجزائر)، المجلد الرابع، العدد الأول، 2023، ص 35.
- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب.
- عبد القادر قصاب، رضوان جنيدي، التحليل النفسي في الدرس النقدي العربي، مجلة آفاق علمية، المجلد 11، العدد 01، 2019.
- عبد العزيز إبراهيم العصيلي، علم اللغة النفسي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، 2006.
- فاطمة الطبال، النظرية الألسنة عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1993.
- فريد زعلامي، المحاضرة الثانية: علاقة الأدب وبالأحاسيس النفسية.
- لابلانز جان، بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2.

مُجَّد ديب، رواية النول، ترجمة سامي الدروبي، دار الهلال، 1970.

يوسف رمضان، فهم اللغة وصياغاتها: مسارات إدراك الكلام وإنتاجه من منظور علم النفس اللغوي، مجلة اللغة الوظيفية، المجلد 11، العدد 1، 2024 .